ـ المحاضرة الأولى ـ

مدخل إلى السردية العربية

1-السرد/المفهوم وإشكالية تعدد المصطلح

1-1 السرد Narration

السَرْدُ: **لغة** تقدمة شيء إلى شيء، تأتي به متسقا بعضه في إثر بعض متتابعا، وسَرَدَ الحديث يسرده سَرْدًا، إذا تابعه، وفلان يَسْرُد الحديث، إذا كان جيد السياق له، وفي صفة كلامه – صلى الله عليه وسلم -أنه: لم يكن يَسْرُدُ الحديث سردا، أي يتابعه، ويستعجل فيه، وَسَرَدَ القرآن الكريم، تابع قراءته (1)، وعلى هذا المنوال، يمكن القول سرد قصة، أو سرد حكاية ...

ولا تختلف معاني كلمة "سرد" في معاجم اللغة العربية عما هي عليه في معجم لسان العرب، إذ إنها تطرح دلالات متقاربة إلى درجة كبيرة، فكلمة سرد في التراث اللغوي، تنصرف للدلالة على الاتساق والتتابع والموالاة، والنظم والنسج والسبك... وهي معان نقف عليها في لسان العرب لابن منظور كما هو واضح في مادة سرد.

وتحسن الإشارة إلى أن القرآن الكريم، لم يستخدم كلمة سرد في الدلالة على حكاية أخبار الماضين الصحيحة، أو المكذوبة، إذ أطلق على الأولى (القص) وعلى الثانية (الأساطير) (2)

ويفسّر جمهور العلماء كلمة (القص) وما اشتق منها في القرآن الكريم، بالإخبار وتتبع الأثر، وتلمس الحقائق، وبذلك نفهم أن توظيف مصطلحي القص والسرد في الموروث العربي، يحصر مجال القص في الإخبار عن الوقائع التاريخية، بينما يحدد مجال السرد في المهارة البشرية في تزويق الكلام (3).

أما المعجم الفرنسي (la rousse) فقد تضمن مفهومات مختلفة لكلمة سرد مثل: عملية القص، أو عرض سلسلة من الأحداث في شكل أدبي (4)، أي تلك العملية المنظمة التي يقوم بها السارد (Narrateur) عند روايته للحكاية. وبذلك تكون دلالته في المعاجم الغربية لا تكاد تختلف عما هي عليه في المعاجم العربية.

إن المهم هنا هو "الصناعة السردية بشروطها وأدواتها، وهذا يعني أن دواعي الإعجاب والإثارة في المسرود لا تعمل عملها في المتلقي حتى يتوفر لها سارد ماهر، أو قاص جيد، يستغل طاقاتها استغلالا حسنا بترتيبها وتنظيمها بما يكفل تأثيرها وشدّها الانتباه ومن ثم، يكون الشكل، هو المؤثر في المتلقي"(5) وما نستنتجه من المفهوم اللغوي للسرد، هو أن السرد يقتضي بالضرورة الانتظام والتتابع، وهو كمصطلح يتطلب هذين الدلالتين. وقد عرفت كلمة سرد تطورا دلاليا كبيرا، واتسعت دائرة استعمالاته إلى كل المجالات التي تقتضي الانتظام والتتابع.

أما **اصطلاحا**، فيعد مصطلح السرد من أشد المصطلحات القصصية إثارة للنقاش والجدل بين النقاد، بسبب ما يعتري مفهومه من اختلافات، تعزى إلى توزعه على مجالات معرفية عديدة، فهو من الناحية الأدبية مثلا "لا يتشكل في نوع أدبي معين، فالملحمة قص والمقامة قص، والقصة القصيرة قص والرواية قص كذلك. والسرد لسانيا، يتجاوز ما اصطلح عليه بالنص الأدبي، فالنص التاريخي يلجأ لزوما للقص، بل إنه لزمن غير بعيد كان يعد خبرا أكثر من سببيته "(6)، بل إننا غالبا ما نرجع للسرد في تعاملنا اليومي فما رأيناه، وما سمعناه نحوله إلى قصص، نقوم بسردها على الآخرين، فهناك مجالات عديدة امّحت في إطارها

الحدود الاصطلاحية التي تحدد أين يبدأ وأين ينتهي السرد. وقد اتسع مجال استخدام السرد، فأصبح يطلق على كل ما يتعلق بالقصص فعلا سرديا أو خطابا قصصيا أو حكاية، ولكن يبقى السياق الذي يستعمل فيه هو الخليق بضبط المعنى الدقيق الذي يعنيه [7]

وفي تحديده لمفهوم السرد يذهب الناقد حميد لحمدني إلى أن الحكي يقوم عامة على دعامتين أساسيتين أولهما: أن يحتوي على قصة ما، تضم أحداثا معينة، وثانيهما: أن يعين الطريقة التي تحكى بها تلك القصة. وتسمى هذه الطريقة سردا، ذلك أن قصة واحدة يمكن أن تحكى بطرق متعددة، ولهذا السبب، فإن السرد هو الذي يعتمد عليه في تمييز أنماط الحكي بشكل أساسي(8).

و يذهب الناقد رولان بارت (Barthes Roland) إلى أن أنواع السرد في العالم لا حصر لها، وهي قبل كل شيء تنوع كبير في الأجناس، وهي ذاتها تتوزع إلى مواد متباينة، كما لو أن كل مادة صالحة لكي يضمنها الإنسان سروده، فالسرد يمكن أن تحتمله اللغة المنطوقة شفوية كانت أم مكتوبة، والصورة ثابتة كانت أم متحركة والإيماء (le geste) مثلما يمكن أن يحتمله خليط منظم من كل هذه المواد(9).

يقتضي السرد الشفهي مهارات إلقائية وإصغائية لدى كل من الراوي والمتلقي، فهما يتشاركان في طقوس الإرسال والتلقي، ويقوم على الكلام والحركة والإيماء والتنوعات الصيغية في المخاطبة، والإنشاد والتماهي مع العالم الخيالي، الذي يصاغ عبر تراسل لفظي وحركي، أما السرد الكتابي، فإنه يقتضي مهارات من طبيعة أخرى، بصرية وذهنية. (10)

والسرد بعده وسيلة مهمة في نقل الرؤى والأفكار والقيم والمعارف وأداة من أدوات بناء الوعي بالذات والعالم والدلالة على استعادة الماضي، فإن كلمات من قبيل: القص ـ الحكي ـ الإخبار ـ الخطاب... تشرك معه في أداء هذه الوظائف والدلالة على هذا المعنى.

1-2 السرد وإشكالية تعدد المصطلح

يطلق كثير من الباحثين في مجال السرديات مصطلح السرد بعده مرادفا لمصطلح القص والحكي والخطاب، ولا يكاد فريق آخر يحدد له مجالا واضحا، فالسرد من زاوية التلفظ هو: " النشاط السردي الذي يضطلع به الراوي، وهو من يروي حكايته ويصوغ الخطاب الناقل لها"[11] ومن منظور التخاطب نجده يمثل: طريقة خاصة في تقديم الحكي، أما من جهة الصناعة، فهو يأخذ دلالة أوسع وأشمل، فيطلق فيها: على كل ما يتعلق بالقصص فعلا سرديا أو خطابا قصصيا أو حكاية".[12] ويمكن لنا أن نقف عند أهم المصطلحات التي يرتبط بها مصطلح السرد.

ـ القص: يختص القص بصياغة القصص التي تنقل أحداثا حقيقية، أو أحداثا تؤخذ على محمل التخيل للحقيقة، أو التصور لها، أي الأحداث التاريخية (13).

والقص (Narration) (أو السرد)، هو عملية اضطلاع الراوي (أو من ينوبه)، بتقديم المحتوى، وعليه يتوقف اختيار نظام الرواية وما يتصل به من مسائل، مثل الرؤية والصوت وغيرها، وقد يكون هذا الراوي حقيقيا مثلما هو الشأن في البرامج، أو القصص التاريخية، وما شاكلها، وقد يكون متخيلا (fictif)(14).

ويشكّل المحتوى مجموعة الأحداث المتصلة فيما بينها تكون خاضعة للترتيب الزمني، وللعلاقات السببية، يرويها سارد بطريقة تقف وراءها غاية مقصودة، موجهة إلى مسرود له. وتتضمن طريقة عرض السارد بالضرورة مؤشرات دالة على النظام الطبيعي للقصة المحكية، تؤدي إلى إمكانية خضوع النص الحكائي

للتأويل، لا بد أن تتوفر القصة أيضا على تعارض بين عنصرين أحدهما مساعد والآخر معاكس، يسهمان في خلق الصراع الدرامي(15).

- **الحكي**: ويدور حول تشكيل الأحداث، وطرق عرضها وترتيبها في الحكاية، بحيث تتحول الحكاية عن طريق الحكي إلى قصة، أو إلى حبكة سواء عن طريق اللغة، أو عن طريق الصور المتحركة، أو الساكنة. ويرتبط الحكي بالخطاب في الرواية، حيث يختص الأول بالتصرف بالأحداث، بينما الثاني، يختص بالقول الذي يقوم بعرض هذه الأحداث(16).

يستوقف مصطلح الحكي الناقد المغربي سعيد يقطين، فيقول في شأنه " يتحدد الحكي لدي كتجل خطابي سواء أكان هذا الخطاب يوظف اللغة، أو غيرها، ويتشكل هذا التجلي الخطابي من توالي أحداث مترابطة، تحكمها علاقات متداخلة بين مختلف مكوناتها وعناصرها" (17). ومعنى هذا: أن الناقد يخصّ مصطلح الحكي بمفهوم التصرف في الحكاية، من خلال عمليتي التّشكيل والعرض، إما عن طريق اللغة، وهذا في الرواية، أو عن طريق الصورة، وهذا في السينما، أو من خلال عمل الممثلين.

إن الحكي بمعناه العام، كما يرى سعيد يقطين، يغيب بعض الجوانب المميزة الكامنة تحته والتي بواسطتها يمكننا تحديد نوع الخطاب الحكائي بدقة، لذا يمكننا إدخال مفهومي السرد(Narration) أو العرض (Représentation) في إطار المقارنة بين خطابين حكائيين فقط (18).

ويقدم سعيد يقطين عند توضيحه لثنائية الحكي والسرد مثالا عن الرواية والمسرحية، ففي الرواية والمسرحية نجد حكيا، بحسب التحديد السابق، لكن الحكي في الرواية يقدم من خلال السرد (Narration)، أي أن هناك راويا، يضطلع بإرسال الحكي عبر السرد كفعل، أما المسرحية، فالحكي فيها، يقدم لنا من خلال العرض أو التشخيص، أو التمثيل(Représentation) أي أن الأحداث تصلنا مباشرة عبر الشخصيات وهي تقوم بتشخيص الحكي(19).

وما نستخلصه مما سبق، أن الناقد سعيد يقطين، يعطي لمصطلح السرد مفهومين:

الأول: ويشمل جميع المستوى التعبيري في العمل الروائي، بما في ذلك الحوار والوصف. والسرد بهذا المفهوم يقابل الحكي.

الثاني: ويختص بتلخيص السارد لحركة الأحداث، وأفعال الشخصيات وأقوالها وأفكارها بلسانه هو، أما الحوار، فهو خارج عن إطار السرد، لأنه يدخل حسب المفهوم في إطار المصطلح المقابل للسرد والعرض

وإن كان المفهوم الأول الذي اقترحه، يقطين للسرد، يجعله يلتبس بمصطلحي الخطاب والنص(20)، فالقاسم المشترك بين كل من السرد، الخطاب، النص هو التعبير، أو المستوى اللغوي في الرواية.

وصفوة القول: يعد مصطلح السرد من أكثر المصطلحات استعمالا وتداولا في مجال النقد العربي المعاصر مقارنة بكلمات أخرى مقابلة كالحكي والقص والرواية... وتأتي هذه المصطلحات في معظم الأحيان لتقديم كلمات بديلة للمصطلح السردي الغربي. ولمصطلح السرد دلالات مختلفة، بحسب مجال استخدامه هذا ويتصل السرد بالطريقة أو الكيفية التي تروى بها القصة أو الرواية ـ بعدها محكيا أو مرويا ـ عن طريق القناة نفسها المتمثلة في السرد، أو ما يتصل بالعملية السردية من مؤثرات ترتبط بالسارد/الراوي والمروي له والقصة المسرودة، التي لا تتحدد إلا من خلال مضمونها والطريقة التي يقدم بها هذا المضمون.

2 - السرديات (Narratologie/Narratology)

السردية: فرع من أصل كبير هو الشعرية (Poetics) والشعرية حسب تودروف (Todorov)هي نظرية الأدب... فبعد أن نهضت منهجية البحث الحديثة بتحديد مفهوم الشعرية بوصفها أصلا، اتجهت نحو تأصيل السردية، وبذلك ظهر إلى الوجود علم جديد، قوّض، أو هو في سبيله لتقويض الانطباعات التي عجزت عن استكشاف مجاهل الخطاب السردي(21). وإن كان تودوروف قد صاغ المصطلح الفرنسي سنة1969 للدلالة على علم جديد لم يوجد بعد...علم القصص، فإن مفهومه كان جاريا في مصطلحات أخرى أوسع مثل الإنشائية وعلم الأدب والأبحاث التي أفادت منها السرديات أو جعلتها ضمن مجالها قد نشأت قبل ذلك بعقود. (22)

فالسرديات فرع معرفي يحلل مكونات وميكانيزمات المحكي، ولكل محكي موضوع، إنه يجب أن يحكى عن شيء ما، هذا الموضوع هو الحكاية، هذه الأخيرة، يجب أن تنقل إلى المتلقي بواسطة فعل سردي هو السرد... فالسرد والحكي مكونان ضروريان لكل محكي(23).

وتعنى السرديات باستنباط القواعد الداخلية للأجناس الأدبية، واستخراج النظم التي تحكمها، وتوجه أبنيتها، وتعين الخصائص التي تميزها، أي أن السردية تبحث في مكونات بنية الخطاب السردي من راو ومروي له، وبما أن بنية الخطاب السردي هي نسيج متشابك من العناصر والمكونات المتفاعلة، فإن السردية هي المبحث النقدي الذي يتناول بالدراسة والتحليل مظاهر الخطاب السردي ومكوناته على مستوى البنية والأسلوب والدلالة. ومثل هذه العناية الشمولية الكلية، أفرزت تيارين سرديين رئيسين هما:

- **السردية الدلالية:** تهتم السردية الدلالية بمضمون الأفعال السردية دونما اهتمام بالسرد الذي يكونها، ولكنها تعنى بالمنطق الذي يحكم تعاقب تلك الأفعال. ومن رواد هذا التيار: فلادمير بروب وكلود بريمون وغريماس

- **السردية اللسانية**: وتهتم بالجانب اللغوي للخطاب، وما يشتمل عليه من رواة وأساليب سردية ورؤى، وعلاقات تربط الراوي والمروي له ومن نقاد هذا التيار السردي اللساني نجد: ورولان بارت جيرار جنيت، وتودوروف.

الهوامش والإحالات: